انتخابات 2016

على الغلاف

أيتام الحلم الأميركي

محمد نزال

قبل 23 عاماً، أنجزت الفنّانة الراحلة فاتن حمامة آخر أعمالها السينمائيّة. كان فيلماً بعنوان: "أرض الأحلام". تَفقد السيّدة المصريّة جواز سفرها، قبل ساعات مِن موعد "الهجرة" إلى أميركا، فتدخل في رحلة بحث عنه. تعود أدراجها إلى كلّ مكان مرّت به. فرصة العمر في خطر، إنّه السفر إلى أميركا، إلى "الحلم الأميركي"... فكلّ جهد الآن مُباح. أجيال في بلادنا كبرت على هذا الحلم. لا داعي للمكابرة. إنّها أميركا، أو أمريكا، على اختلاف ألسن "العالم الثالث" وآهاته. هكذا جرى تصوير تلك البلاد لنا، هكذا زُرعت في وعينا، ذلك النموذج البشري الأعلى، كشيء أبعد مِن "أرض اللبن والعسل". هكذا "تثقّفنا" أميركيّاً، في أفلامنا، في أفلامهم "هم" مِن قبل ومِن بعد، وكم حفرت "هوليوود" في أحلامنا. لم يكن للبعض إلا أن يُصدّق. الكلّ، والتعميم مجازفة مشروعة هنا، الكلّ "أغرم" بها. حتى مَن نادوا لها بالموت، ولا يزالون، أصيبوا بلعنة الافتتان بها. الكلّ "مريض بأميركا". ليس غريباً على النفس أن تنجذب إلى قاتلها. كان يكفي لأحدنا أن يُشاهد ما تفعله أميركا في العالم، في لحظته، مِن غير أن يقرأ تاريخها، حتى يَعرف أنّها أعتى وحش عالمي في العصر الحديث. لكن مع ذلك، كانت تستمر "السرنمة" (المشي أثناء النوم) في بلادنا. إنّها أعظم قوة مغناطيسيّة، إذ هي أعظم قناع. إلى هذا الحد الرهيب يُمكن للإنسان أن يُبدع في طلسمة الأذهان. ليس سهلاً أن تشرح ما هي، تلك القوّة، تلك الحالة، لكثيرين. ليس سهلاً، أكثر مِن الشرح، أن تُقنع المأخوذ ذهولاً، بغير ما يرى. أميركا مذهلة حقّاً. لا داعي للمكابرة مرّة أخرى. الموجوعون يتعلّقون بحبال الهواء. هي أوجعتهم، ومعها كلّ عدّتها مِن داخلنا، هذا صحيح، لكن تعال لتقنعهم. عبثاً تُحاول وقد أفلحت هالتها في "سرنمتهم". يَكتب المؤرّخ الأميركي جيمس آدامز، صاحب مصطلح الحلم، في ثلاثينيات القرن الماضي: "لم يُصبح الحلم الأمريكي، الذي جذب عشرات الملايين من الأمم إلى سواحلنا خلال القرن الماضي، حلم تحقيق الرخاء المادي فقط. لقد أصبح حلم القدرة على وصول الرجل والمرأة إلى أعلى درجة مِن التطور دون التقيد بالعوائق التي أقامتها الحضارات القديمة، أو الأوساط الاجتماعية التي ظهرت لمصلحة الطبقات، بدلاً من أن تكون لمصلحة الإنسان البسيط". شيء مِن قبيل "ما فوق المهزلة" أن تتحدّث عن "الطبقات" و"أميركا" و"الإنسان البسيط" في سطر واحد. دعنا مِن كل ما مضى. كتب التاريخ الحديث متاحة أمام الجميع لَمن، حقّاً، لا يزال لا يَعلم، والآن يُريد أن يَعلم.

المُهم الآن، دونالد ترامب! "الحلم الأميركي" وترامب! أيّ أيتام لهذا الحلم، ولو على الورق، ولو في الأحلام، ستحبل بهم أرحام الخيبة الآن؟ أيتام أميركا. الحلم وقد استحال كابوساً. أبعد مِن الدول، مِن الساسة، مِن الأنظمة، التي عاشت على "بركة" أميركا، أبعد يعني وصولاً إلى عقول مليارات البشر على ظهر الكوكب. مليارات "العاديين" مِن الناس. تمثال الحريّة الشهير، المطلّ على خليج نيويورك، الذي، كما حفظنا مِن الأفلام، كانت صيحات الفرح تنطلق مِن حناجر راكبي بواخر الهجرة لحظة رؤيته مِن بعيد... هذا التمثال، كما تقول الطرفة الآن، يُفكّر في أن يحزم حقائبه للانتقال إلى كندا، مثلاً. دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة! أيتام أميركا، في النموذج الإنساني قبل السياسة، كأفراد قبل الجماعات، يَستحقون اليوم التعاطف معهم. أخذهم في الحضن، إن أمكن. كفكفة دموعهم الحبيسة. عن أيّ نموذج بعد اليوم سيتكلّمون؟ إنّه ترامب، إنّه الشعب الأميركي، أليست هذه هي الديموقراطيّة؟ ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم، هذه هي. ترامب المجنون، الملياردير اللعوب، العنصري، الذي يُريد طرد كلّ آخر مِن بلاده وسحقه، المتحرّش، الساخر مِن المعوّقين جسديّاً وأصحاب الحاجات الخاصة، المزوّر، الأبله، الشوارعي، السخيف... وتطول اللائحة. هذا أصبح رئيساً لـ"الإمبراطوريّة الأميركيّة". مَن لم يتعرّف إليه كفاية، فأمامه آلاف المقاطع المصوّرة. آلاف المقابلات والمقالات. عجّلوا وتعرّفوا إلى "قائد العالم". مجدّداً، ليست القضيّة فيه شخصيّاً، إنه "مصطفى" الشعب الأميركي، إنّه صفوة الصفوة بعد الغربلة. هذا الذي وصل. هذا فخر صناعة "الديموقراطيّة" على الطريقة الأميركيّة. هذا الجدل الذي سوف يُفتتح اليوم، مِن جانب الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والإنسانيّات. أيتام "الحلم الأميركي" اليوم يجلّون عن الحصر. هل يكون ما حصل سبباً لدخول أفواج الحالمين دوامة مِن الإحباط والعبثيّة؟ إلى أين يسير العالم؟ في المقابل، يجوز أيضاً عدم المبالغة في الأمر، إنّها أميركا، أميركا يا عمّ، فلا تتحدّث عن سقوط وما شاكل. هذا صحيح أيضاً. إنّها أميركا. لكن، وعلى قاعدة أضعف الإيمان، فإن السقوط الأخلاقي قد حصل. لنقل إنه "ظهر" بوضوح أكثر. وبما أنّ أميركا قبلة العالم عند كثيرين، في الخير والشر، فإن ما حصل لن يبقى محصوراً في أميركا. العين اليوم على أوروبا. على "قيمها" و"إرثها الإنساني"... كما قال بعض قادة دولها، أمس، بُعيد إعلان فوز ترامب.

قبل مدّة، وصّف الفيلسوف الأميركي، تشومسكي، حالة ترامب بأنّها: "حصيلة مجتمع متداعٍ وماضٍ بقوة نحو الانهيار". قبل أكثر مِن سنة، وقبل ظهور نجم ترامب، كان تشومسكي خائفاً على كوكب الأرض عموماً. الرجل التسعيني، وفي مقابلة صحافيّة، قال: "هناك هاويتان، كارثة بيئية وشيكة، لم يعد لدينا الكثير من الوقت للحد منها. أما الثانية فتعود إلى سبعين عاماً، كان هناك خطر الحرب النووية، خطر لا يزال ينمو. إننا بقينا على قيد الحياة بمعجزة. الآن، نحن نُسرع إلى الهاوية، مصممون على السقوط في العدم".

جنون ترامب لا يُخرجه من «بيت الطاعة»

ترامب ليس من خارج المنظومة، يمكن معرفة ذلك من اللحظة الأولى، حينما أعلن مرة أنه سيكون محايداً في القتال بين إسرائيل والفلسطينيين، ثمّ غيّر موقفه لاحقاً بتأكيده أنه سيدافع عن إسرائيل مهما كلّف الأمر. ولكن التعمّق في التفاصيل الأخرى يمكن أن يشير أيضاً إلى أن جنون ترامب لم يخرجه من «بيت طاعة» النظام

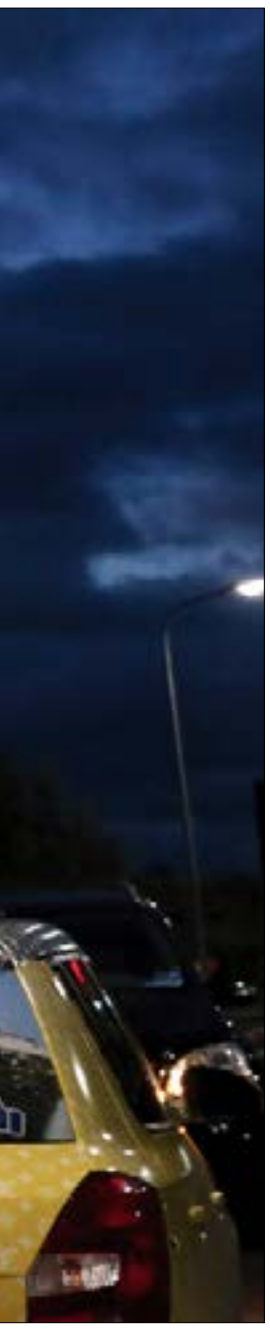

نادين شلق

منذ ترشح دونالد ترامب للرئاسة إلى اليوم، عمد المحلّلون والمراقبون إلى تناول واقعه من خلال تعيير انعدام خبرته السياسية، وحدّة خطابه الذي تبيّن لاحقاً أنه أثار غرائز غالبية الأميركيين. وفي ظل نقص التجربة السياسية، عمل الإعلام الأميركي على استحضار "فضائح" تتعلق بحياة ترامب الاجتماعية والشخصية، فغافله أحياناً بتسجيلات تُظهر خطابه السيئ والمهين بحق النساء، وأحياناً أخرى بتهرّب ضريبي وبغيرها من الأدوات؛ وبين هذا وذاك طالعه باستطلاعات تُبرز انعدام فرصه في الفوز في الرئاسة. لم تكن هذه المحاولة صعبة بوجود حالة وشخصية إعلامية معروفة ومثيرة للجدل، مثل ترامب. وربما بدت الصعوبة لدى الذين تناولوا ظاهرته، في عدم فهمهم للشارع. إلا أن الأهم من كل ذلك، كان عدم التفاتهم إلى ذهنية هذا المرشّح الحسابية والتجارية، التي وقفت وراء صعود مؤسساته وبروز اسمه كقطب عقارات ومال، وربما كانت سبباً في انتخابه، ولا سيما أن غالبية خطاباته ركّزت على الجانب الاقتصادي من منظار مبسّط يعكس هموم الأميركيين. ولكن هل يعني ذلك أن ترامب جاء، فعلاً، من خارج المنظومة، أو ما يُسمى الـ"إستابليشمانت"؟

بنظرة سريعة على كل ما حوله، يمكن تبيان ما يعارض هذه الفرضية. ترامب سيدخل إلى البيت الأبيض، في 20 كانون الثاني المقبل، متسلّحاً بأهم الأسلحة لدى الرؤساء الأميركيين التقليديين، في بداية ولايتهم الأولى، أي كونغرس ذي غالبية حزبية مماثلة لسياسته، سيكون مسهّلاً لقرارات كثيرة قد يتخذها، وذلك بعدما تمكن الجمهوريون من الفوز في مجلس الشيوخ، بـ51 مقعداً في مقابل 47 للديموقراطيين، وفي مجلس النواب بـ239 مقعداً مقابل 192. جاءت هذه النتيجة لتنفي فرضية أخرى كان أساسها الترويج لفكرة أن الحزب الجمهوري واقع في مأزق، ليتبيّن بعد الانتخابات أن هذا المأزق من نصيب الحزب الديموقراطي، في ظل التناقص الواضح في شعبية قادته، ووسط عدم وجود إدارة واضحة له، إثر استقالة رئيسة لجنته الوطنية ديبي ويسمان شولتز، في وقت سابق من العام الحالي. كل ذلك فضلاً عن الفضائح التي رافقت قادته بسبب تفضيلهم مرشحاً على آخر، أي هيلاري كلينتون على بيرني ساندرز.

بنظرة ثانية، يتبيّن أن ترامب أعاد الزخم للحزب الجمهوري، ومهما كانت اعتراضات أعضائه على أدائه عندما كان مرشحاً، فإن شعبيته ستشكل بيضة القبّان وستؤخذ في الاعتبار عند كل استحقاق تشريعي، لتنتهي إلى تسويات مُفترضة في مسائل كثيرة، بما يرضي الطرفين، خصوصاً في السياسة الداخلية.

والأكثر تعبيراً عن هذه النقطة، ما ذكرته العضو في الحزب الجمهوري كوري شايك، التي سبق أن عملت في البيت الأبيض ووزارة الخارجية والبنتاغون. فقد أعربت عن أملها الكبير في أن ينضم زملاؤها المحافظون إلى الإدارة الحالية. وقالت، في حديث إلى صحيفة "بوليتيكو"، إن "المساعدة في عدم انتخاب ترامب شيء، والقيام بما هو أفضل بعد حصوله على أصوات الناخبين، شيء آخر".

ويأتي موقف شايك الأخير مناقضاً لموقف سابق كانت قد صرّحت فيه بأنها لن تعمل أبداً لمصلحة ترامب. واستطراداً، قد تنفع الإشارة إلى أن مواقف ترامب من غالبية القضايا الداخلية، تتماثل مع مواقف حزبه. ومنها مثلاً مسألة التأمين الصحي (أوباما كير)، التي انتقدها طوال فترة حملته الرئاسية، فيما كانت ولا تزال تلاقي اعتراضات متصاعدة من غالبية القادة الجمهوريين، الأمر الذي يعني إمكانية السعي إلى تعديلها، في العهد الجديد. كذلك، يمكن ذكر مثل آخر، وهو توافق الرئيس المنتخب والكونغرس على

أوروبا: نهيّئ أنفسنا

بعدما صار «كابوس ترامب» حقيقة، جاءت تصريحات السياسيين الأوروبيين «داكنة»، وفق توصيف صحيفة «شبيغل» الألمانية. فالمستشارة الألمانية، أنجيلا ميركل، وجدت أنّ من الضروري إعادة تذكير الرئيس المنتخب بالقيم التي تجمع برلين وواشنطن، قائلةً: «الديموقراطية، احترام حقوق الإنسان... هي القيم التي أدعو من خلالها رئيس الولايات المتحدة على التعاون معاً على أساسها».

كذلك، أمل وزير الخارجية الألماني، فرانك ـ فالتر شتاينماير، ألّا «نكون أمام عدم استقرار أعظم في العالم. في خلال حملته، شكل ترامب خطراً ليس لأوروبا فقط، بل لألمانيا أيضاً»، مضيفاً: «علينا أن نهيّئ أنفسنا لسياسة خارجية أميركية لا يمكن التنبؤ بها. علينا أن نهيّئ أنفسنا لحالة تكون فيها أميركا مستعدة لاتخاذ قرارات منفردة».

أكثر من ذلك، فقد ذهب وصف رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق، إنريكو ليتا، للحدث بأنه «التطور السياسي الأكثر أهمية منذ سقوط جدار برلين». بجانب هذه الردود، صرّح رئيس البرلمان الأوروبي، مارتن شولتز، بأنه ليس «سعيداً» بهذه النتيجة، لكنه عبّر عن أمله في أن «النظام السياسي الأميركي قوي بما يكفي ليتعامل مع رئيس مثل ترامب».